مقاربة في الفكر العسكرتالي: ابن خلدون عالم في التاريخ والاجتماع والعسكر

م. د. أحمد رفعت داوود

جامعة سامراء– رئاسة الجامعة

ahmed.r.daood@uosamarra.edu.iq

تاريخ الاستلام 2025/7/28 تاريخ القبول 2025/9/15 تاريخ النشر 2025/12/22

الملخص:

يتناول هذا البحث إسهامات عبد الرحمن بن خلدون في الفكر العسكري، من خلال تحليله للحرب باعتبارها ظاهرة إنسانية واجتماعية تتجاوز مجرد الاشتباكات الميدانية إلى ما هو أعمق من ذلك. فقد ميّز ابن خلدون بين الأسباب الظاهرة للنصر العسكري، مثل العِدة والعدد والاستعداد والتنظيم والروح المعنوية، وبين الأسباب الخفية التي ترتبط بعوامل استراتيجية ونفسية وسوقية، مثل التخذيل (الحرب النفسية)، والكمون (الكمائن)، واستغلال الأرض، والخداع. كما تناول نظم المعركة (التعبئة) من خلال استعراضه لأنواع التشكيلات القتالية، مثل نظام الكر والفر، ونظام الزحف، والكراديس، والصفوف. وإلى جانب ذلك، قدّم ابن خلدون تصنيفًا للحروب، ففرّق بين الحروب العادلة وغير العادلة، رابطًا ذلك بطبيعة المجتمع وظروفه السياسية والدينية.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون، الفكر العسكري، الاستراتيجية، الحرب النفسية، النصر والهزيمة.

An Approach to Militaristic Thought: Ibn Khaldun as a Scholar in History, Sociology, and Military Affairs

Dr. Ahmed Rifaat Dawood

University of Samarra - University Presidency

Abstract

This research examines the contributions of Ibn Khaldun to military thought, particularly his analysis of war as a human and social phenomenon that extends beyond mere battlefield clashes. Ibn Khaldun distinguished between the apparent causes of military victory, such as equipment, numbers, organization, and morale, and the hidden causes, which are linked to strategic, psychological, and tactical factors, including psychological warfare (takhdheel), ambushes, the

use of terrain, and deception. He also discussed the systems of battle deployment by reviewing various combat formations, such as the hit-and-run system, advancing formations, blocks, and lines. Furthermore, Ibn Khaldun classified wars, distinguishing between just and unjust wars, while linking them to the nature of society and its political and religious conditions.

Keywords: Ibn Khaldun; Military Thought; Strategy; Psychological Warfare; Victory and Defeat.

المقدمة

ان عبد الرحمن بن خلدون، أحد أبرز المفكرين والمؤرخين في الحضارة الإسلامية، ليس فقط بوصفه مؤرخًا وعالم اجتماع، بل أيضًا باعتباره أحد أوائل من حاولوا دراسة الحرب دراسة تحليلية تتجاوز السرد التاريخي للأحداث. فقد أدرك ابن خلدون أنّ الحرب ليست مجرد اشتباكات عسكرية بين جيوش متقابلة، بل هي ظاهرة معقدة تحكمها عوامل مباشرة وظاهرة، إلى جانب أسباب خفية تتصل بالروح المعنوية، والخداع، وحسن استثمار الأرض، والكمائن، والتعبئة. ويُظهر هذا التصور أن ابن خلدون سبق العديد من المنظرين العسكريين في إدراك جوهر الحرب وفهم أبعادها غير المرئية.

وتكمن **أهمية هذا البحث** في إبراز إسهام الفكر الإسلامي في حقل الدراسات العسكرية، وتوضيح كيف سبق ابن خلدون في مقدمته العديد من المنظرين الغربيين مثل مكيافيلي وكلاوزفيتز وليدل هارت، وذلك من خلال تحليله للعوامل السوقية والنفسية للحرب، وهو ما يعكس عمق رؤيته الفلسفية وقدرته على تحويل التجربة التاريخية العربية والإسلامية إلى قواعد عامة قابلة للتطبيق.

أما **فرضية البحث** فتقوم على أنّ ابن خلدون أسهم في وضع لبنات التفكير العسكري الاستراتيجي الحديث، من خلال ربطه بين العوامل الظاهرة والباطنة للنصر العسكري، وأن تحليلاته تمثل أساسًا مبكرًا لما صار يعرف لاحقًا بالاستراتيجية العسكرية.

وتنقسم **هيكلية البحث** إلى عدد من المحاور والفصول، جاءت كالآتي:

أولاً: الحرب قبل ابن خلدون بين السرد التاريخي والوصايا العسكرية.

ثانياً: إسهامات ابن خلدون في الفكر العسكري (الأسباب الظاهرة للنصر).

ثالثاً: الأسباب الخفية في تصور ابن خلدون

رابعاً: المسألة التعبوية عند ابن خلدون (نظم المعركة وتشكيلاتها).

خامساً: رؤية ابن خلدون لمسألة الحرب وأنواعها.

الخاتمة: النتائج العامة التي توصل إليها البحث.

أولاً: ابن خلدون حياته وعلمه

اسمه ونسبه

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، ويُعرف اختصارًا بـ ابن خلدون. وُلد في غرة رمضان 732هـ/ 1332م بمدينة تونس، في أسرة أندلسية عربية نزحت من إشبيلية بعد سقوطها في يد القشتاليين سنة 1248م[1]، وقد لعبت عائلته دورًا مهمًا في الأندلس والمغرب في ميادين السياسة والعلم.[2]

نشأته وعلمه وفكره

نشأ ابن خلدون في بيئة علمية، فحفظ القرآن الكريم مبكرًا، ودرس علوم اللغة والأدب على يد محمد بن سعد بن البرّال، والفقه المالكي عند ابن عرفة، كما أخذ عن محمد بن إبراهيم الآبلي علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات[3] .

وقد جمع في تكوينه بين العلوم الشرعية كالفقه والتفسير، والعلوم العقلية كالفلسفة والمنطق، وهو ما مهد له لتأسيس فكر نقدي متميز في التاريخ والاجتماع[4].

يُعتبر ابن خلدون مؤسسًا لما يُعرف اليوم بـ علم الاجتماع، وهو ما أطلق عليه اسم "علم العمران البشري."

أهم أفكاره:

العصبية: يرى أن الدول تنشأ على أساس العصبية وتنهار بفقدانها [5]

الدورة الحضارية: تمر الدولة بمراحل النشوء، القوة، الازدهار، ثم الانحدار[6]

نقد الأخبار التاريخية: دعا إلى التحقق من صدق الروايات التاريخية وربطها بقوانين الاجتماع [7]

الفكر الاقتصادي: أشار إلى أثر العمل في القيمة الاقتصادية، وتحدث عن قوانين العرض والطلب، والضرائب وأثرها في العمران [8].

وفاته

توفي ابن خلدون يوم 25 رمضان 808هـ/ 1406م بمدينة القاهرة، ودفن بمقابر الصوفية قرب باب النصر [9] .

ثانياً: الحرب قبل ابن خلدون بين السرد التاريخي والوصايا العسكرية.

لم تُدرس الحرب بشكل علمي حتى فترة متأخرة. وقد وصل إلينا كل ما يتعلق بالحرب على شكل وصايا وكلمات وردت على لسان القادة والملوك. ورغم أن المؤرخين قد عرضوا المعارك الحاسمة في التأريخ، إلا أنهم لم يهتموا بالجوانب السوقية[10] التي أدت الى حسم المواقف العصيبة في تأريخ الأمم. إذ ركزوا جل اهتمامهم على عملية الاشتباك المباشر. إن وصف معركة حاسمة من جانب أحداثها المباشرة، هو في الواقع بمثابة وصف القمة من أسفل الجبل. لذلك عجز الكثير من المؤرخين عن تحليل أسباب الانتصارات العسكرية الحاسمة في جانب واحد رغم ضعفه الظاهري بالعدة والعدد والاستعداد بالنسبة لخصمه الذي قد يهزم رغم تفوقه في المسائل الظاهرية الآنفة.

تعتبر كتابات ميكافلي[11] (1469–1527) بمثابة المحاولة الأولى للبحث في الماضي العسكري عن القاعدة والوسيلة التي تضمن النصر. ولم تأخذ الحرب شكلاً فلسفياً حتى تناولها الضابط والمفكر البروسي كارل فون كلاوزفيتز[12] (1780–1831). حيث وضع اللبنات الأساسية في دراسة الحرب دراسة علمية معتمداً على حروب نابليون بونابرت. وقد توصل الى نتائج مذهلة جعلت من نظرياته العسكرية الأساس الذي بُنيت عليه العديد من الجيوش الأوربية فيما بعد، ومن أسلوبه في تلك الدراسة منهجا اعتمدت عليه الدراسات اللاحقة حتى اليوم.

قام المؤرخون العرب بنقل التأريخ العسكري العربي كجزء من تأريخ العرب والاسلام. وقدموه بصورة سردية، مُلِمين بدقائق الأحداث وتفاصيلها، ومرجحين الآراء فيما يخص الأحداث وصحتها، دون التحليل والاستنباط للوصول الى القواعد والأسس التي تتحكم في الحرب كظاهرة وكأحداث. إلا أن المفكر

والمؤرخ العربي عبد الرحمن بن خلدون (المتوفى عام 1406م) تميز عن غيره بدارسة الحرب وعرضها بشكل جديد في مقدمته الشهيرة، إذ قدم نموذجاً متميزاً في دراسة الحرب دراسة علمية تجعله من الرواد الأوائل في محاولة فهم الحرب فلسفياً من خلال الاستقراء والتحليل وصولاً الى القاعدة والمضمون. ورغم أنه تعرض للحرب بشكل موجز ومختصر جداً، إلا أن كلماته الدقيقة، وعباراته الموجزة، تعبر عن أكثر المسائل جوهرية في ظاهرة الحرب. ومما لا شك فيه، أنه قد استلهم التأريخ العسكري العربي في تلك الدراسة، مع أنه لم يهمل ما كان حوله من أخبار الأمم الأخرى. ولكي نقف على هذا الدور الرائد لابن خلدون في دراسة الحرب دراسة علمية، لابد من عرض وجهة نظره، مع دعمها بعينات واضحة من التأريخ العسكري العربي، ومقارنتها مع أحدث الدراسات العسكرية التي قدمها المنظرون العسكريون في العصر الحديث.

ثالثاً: إسهامات ابن خلدون في الفكر العسكري (الأسباب الظاهرة للنصر).

المسألة السوقية

إن تحقيق أي نصر عسكري لابد وأن يرتبط بسمات متميزة عبدت طريق النصر ومهدت له. فلا يكاد الجنود ينفضون عنهم غبار معركة ما حتى ينبري لها المفكرون العسكريون بالدراسة والتحليل للوصول الى الأسباب والعلل التي أدت الى النصر في جانب والهزيمة في جانب آخر.

من المسائل التي تناولها ابن خلدون في هذا المجال مسألة النصر العسكري من الوجهتين المباشرة وغير المباشرة. أما الوجهة المباشرة فهي التي تتضمن كل ما يتعلق بالعُدَةِ والعَدَدِ والانفتاح، أما الوجهة غير المباشرة فهي التي تتناول الجوانب السوقية، لذلك نجد أن ابن خلدون يرى أن تحقيق أي نصر عسكري إنما يكون بمجموعتين من الأسباب: الظاهرة والخفية. ويُوجز الأسباب الظاهرة بقوله:

" ..... أسبابُ الغَلَبِ فِي الأَغلب مجتمعةً مِنْ أمورٍ ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكمال الأسلحة واستجادتها وكثرة الشجعان وترتيب المصافِ ومنه صدق القتال وما جرى مجرى ذلك .... "[13].

إذاً فأن الأسباب الظاهرة لأي نصر عسكري عند ابن خلدون تشمل:

أ) **العِدة:** وهي الوسائط العسكرية المتعلقة بالتسليح والتجهيز، ويلمح ابن خلدون الى الأسلحة الجديدة بما لها من تأثير بالغ في تحقيق عنصر المباغتة.

ب) **العدد:** وهو تعداد الجيوش وكثرتها.

ج) **الاستعداد:** وهو ما يتعلق بقدرات الجنود القتالية ومستوى تدريبها وتمتعهم بمزايا الشجاعة والبطولة.

د) **ترتيب المصاف (الانفتاح):** وهو التشكيل الذي يخوض به الجيش معركته بشكل مباشر.

هـ) **صدق القتال (الحال المعنوية):** وتمثل مدى الاستعداد المعنوي للجنود في التضحية والصمود.

كانت أسباب النصر العسكري، حتى عصر كلاوزفيتز، يُنظر إليها من هذا الجانب فقط. إلا أن ابن خلدون لم يقتنع بهذه الأسباب الظاهرة لتحقيق أي نصر عسكري، منطلقا بذلك من تجربة التأريخ العسكري العربي التي تدحض هذا الاستنتاج بشكل واضح. لم يعجز ابن خلدون أمام هذه المعضلة، فيرجع أسباب الانتصارات العسكرية الحاسمة التي حققها السيف العربي ضد أقوى إمبراطوريتين آنذاك (الفارسية والبيزنطية) الى الروح المعنوية فحسب، كما فَعَلَ الكثير من المستشرقين الذين تناولوا التأريخ العسكري العربي، بل أنه جعل الروح المعنوية للجندي من الأسباب الظاهرة (صدق القتال) التي قد تؤدي الى النصر، ولكنها ليست كل النصر. لذلك يقول ابن خلدون:

" ..... لا وثوق في الحرب بالظَّفَرِ وإنْ حَصُلَتْ أسبابه من العدة والعديد ....."[14].

إذاً لا بد أن للنصر أسباباً أخرى غير ظاهرة سماها ابن خلدون بـ " الأسباب الخفية " فما هي هذه الأسباب الخفية كما يراها ابن خلدون؟

يرى ابن خلدون الأسباب الخفية ذات شقين:

فهي إما من عمل الانسان وإبداعه، وأما من عمل الغيب الذي لا طاقة للإنسان به. وتبرز روحه العلمية بتركيزه على الشق الأول، أي على عمل الانسان وأبداعه: حيث يشكل الخداع عنده الإطار العام للأسباب الخفية. إن تركيز ابن خلدون على الخداع يثبت حقيقة مهمة، وهي إدراكه لأهمية السوق (الاستراتيجية) في تحقيق النصر العسكري. ويعبر كارل فون كلاوزفيتز عن نفس المعنى بقوله: " .....

ولأول وهلة يبدو أن الاستراتيجية كانت على حق عندما استعارت اسمها من – (الستراتيجم – (الخدعة والحيلة) لقد بقي هذا التعبير متفقاً ومتلائماً مع أعمق طبيعة للحرب، رغم كل التحولات الحقيقية والظاهرة التي تعرضت لها الحرب ....."[15]. ومع ذلك فأن ابن خلدون لم يقف عند هذه الكلمة – الخداع – أو الستراتيجيم – التي تتضمن حتى في المفاهيم العسكرية المعاصرة الكثير من الدلالات، بل راح يفسرها بطريقة تُعيدُ الشجرة الى جذورها. وهكذا استطاع ابن خلدون أن يكتشف الأسباب الخفية التي تقع ضمن الفعل الانساني (من خداع البشر وحيلهم). وهذه الأسباب لا زالت حتى الوقت الحاضر تقع ضمن عوامل التخطيط السوقي أو الاستراتيجي وهي:

أ) التخذيل (الحرب النفسية)

ب) الكمون (الكمين السوقي)

ج) الأرض

ولكي نعرف من أين جاءت هذه الكلمات، لابد من التفاتة سريعة الى التأريخ العسكري العربي الذي قدم ابن خلدون عينات منه لدعم النتائج التي توصل إليها.

ثالثاً: الأسباب الخفية في تصور ابن خلدون

1- التخذيل (الحرب النفسية):

يشكل التخذيل أو ما نسميه اليوم بالحرب النفسية صورة تشتمل على الكثير من الملامح المتجانسة بحيث تكون قابلة للوصف. وتتكاثف هذه الملامح، من الأعلام، عدالة القضية، كفاءة القيادة العسكرية، الى الابداع العسكري، لتشكل الضربة النفسية التي توجه الى رأس الخصم قبل الضربة التي توجه الى جسده. ويزخر التأريخ العسكري العربي بأمثلة من هذا النوع: فهناك معركة الخندق نعيم بن مسعود[16] في تخذيل الأحزاب. وكذلك ما فعله أبو عبيدة عامر بن الجراح عندما انسحب من مدينة حمص للالتحاق ببقية الفرق الاسلامية في اليرموك، حيث أعاد الجزية التي كان قد أخذها من أهل المدينة عند احتلاله إياها، مما أثار إعجاب السكان بالمبادئ السامية التي يتحلى بها هؤلاء الجنود، فأسفوا على

خروجه من مدينتهم مما جعل البيزنطيين يسومونهم سوء العذاب والتنكيل لتعاطفهم مع العرب المسلمين[17]. كما اتخذ التخذيل شكلاً أكثر إيجابية في تحرير العراق، وذلك باستمالة الشعور القومي عند عرب العراق الذين قادهم المثنى بن حارثة الشيباني في حرب غوار ناجحة، استهدفت مناطق الفرس الحساسة ومناطقهم التجارية. لذلك حاول رستم قائد الفرس تجنب الاشتباك مع العرب في القادسية. ولولا ضغط الملك يزدجرد عليه، لاتبع خطة فابيوس[18] في تحاشي المعركة في ظروف غير ملائمة واستنزاف التفوق السوقي عند العرب، ذلك التفوق الذي أنجزته حركات المثنى وأبي عبيد الثقفي وخالد بن الوليد لقد أكدت القادسية أن العرب كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً في طريق النصر السوقي الذي جعل احتلال المدائن بعد القادسية قراراً ممكناً للتنفيذ من الناحية الاستراتيجية. لذلك نجد أن سعد بن أبي وقاص يقول بعد إصدار أوامره بعبور نهر دجلة واحتلال المدائن:

" ..... ليس وراءكم شَيْءٌ تَخَافُونَ أَنْ تُؤْتُوا مِنْهُ، فَقَدْ كَفَاكُمُوهُم أَهلُ الأَيام وَعَطَّلُوا ثُغُورَهُم وأَفْنَوا ذادتهم ....."[19].

كما تجسد التخذيل في القيادة العسكرية الفذة التي قادت العرب في حربهم العادلة. ففي معركة اليرموك وقف جورج قائد المقدمة البيزنطينية سائلاً خالد بن الوليد:

" يا خالد أصدقني ولا تكذبني فإنَّ الحر لا يكذب .... باللَّهِ هَلْ أَنزَلَ الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تَسلُهُ على قوم إلا هزمتهم...."[20].

إذا كانت هذه فكرة القائد المعادي عن قيادة خالد، فكيف يمكن أن تكون فكرة الجندي البسيط؟ وكيف يمكن أن نلمس من خلال ذلك مدى تأثير الحرب النفسية عليه؟ لقد قدمت الحرب العالمية الثانية رومل كنموذج للقيادة العسكرية الموهوبة ومدى تأثيرها نفسياً في الخصم، مما جعل البريطانيين يقدمون مونتغمري بهالةٍ من الاعجاب والتقدير لمواجهة أسطورة رومل.

تجسد التخذيل أيضاً في الابداع العسكري، مما جعل القائد المعادي ينظر الى تلك الطريق الجديدة غير المألوفة بالدهشة والغرابة. فهناك الهجوم الليلي الذي شنه القعقاع بن عمرو في معركة القادسية (ليلة الهرير)[21] والذي قرر مصير الاشتباك الى حد كبير. فما أن كان الصباح حتى بدأت فلول الفرس

قتال القهقرى نتيجة للصدمة المروعة التي تركها الهجوم الليلي الذي لم يكن آنذاك مألوفاً كما هو عليه الآن. ولَعِب القعقاع نفس الدور في هجوم ليلي شنه بعد أن تحاجز الطرفان في معركة جلولاء[22].

إن الأسباب الخفية التي يعبر ابن خلدون عن واحد منها بالتخذيل قد قَدِمَ لأول مرة على شكل نظرية للمفكر العسكري البريطاني ليدل هارت، أطلق عليها بـ (الاستراتيجية غير المباشرة والتقرب غير المباشر) وقد عبر عنها ليدل هارت بقوله:

" ..... كان الأسلوب غير المباشر مادياً أحياناً ونفسياً دائماً، وهكذا فالطريق الطويل المتعرج في الاستراتيجية هو أقصر الطرق لبلوغ الهدف ..... "[23].

2- الكمون (الكمين السوقي):

يقول ابن خلدون:

" ..... في الكمون في الغِياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدى حول العدو حتى يتداولهم العسكر دفعة وقد تورطوا فيتلمسون الى النجاة ..... "[24].

تشتمل كلمات خالد بن الوليد هذه على الكمين بمعناه التعبوي البسيط في الاستفادة من الأرض لانتظار العدو ومباغتته، كما تشتمل على الكمين بمعناه السوقي الواسع الذي هو مدار البحث في هذا المجال. لقد كانت عبارة ابن خلدون (التواري بالكدى حول العدو) حقيقة واضحة في معركة اليرموك عندما قام العرب المسلمون بحركة التفاف حول ميسرة الروم عبر جبل حوران[25]. وكذلك حينما أمر نعيم بن مقرن ابن أخيه المنذر بن عمرو بالالتفاف حول مدينة الري خلسة أثناء الليل لمواجهة التفوق الفارسي الذي مسك سفح جبل الري بجانب المدينة. فما كان الصباح، وقد دخلت خيول المنذر مدينة الري حتى أصبح الجيش الفارسي بين فكي كماشة فأضطر الى الهرب على غير نظام[26]. كما قام خالد بن الوليد بنصب كمينين ظهرا في الوقت المناسب لمهاجمة الفرس من الخلف في معركة الولجة، وإرباك ترتيب المعركة الذي كانوا يقاتلون به، وتهديد طرق انسحابهم، مما أدى الى زعزعة موقفهم وانهيار مقاومتهم بشكل سريع. رغم هذه الحقائق الساطعة فأن المنظرين العسكريين في الوقت الحاضر يعتبرون نابليون بونابرت أول من استحدث هذا النظام السوقي بعد أن نظم جيشه فرقاً على محاور مستقلة. بينما لا يزال

التأريخ يذكر أن الجيوش العربية الاسلامية تقدمت الى بلاد الشام في عهد أبي بكر (ﷺ) في أربع فرق مستقلة كانت تعمل على محاور مستقلة وفق تنسيق وتخطيط المدينة المنورة.

لقد اتسمت حروب التحرير العربية في الشام والعراق بسمة خاصة في مجال الاستراتيجية أو السوق العسكري. حيث عمد القادة العرب الى اتخاذ موقف الدفاع في بداية المعركة مما يجعل العدو يصطدم بجدار صلب من المقاومة الجماعية المتماسكة فتكون النتيجة أن يرتد من شدة الصدمة، حيث يبدأ الهجوم المقابل العربي من هذه النقطة لحسم الموقف كما حدث في اليرموك واليوم الأول والثاني في معركة القادسية. إن هذه السمة السوقية جعلت ابن خلدون يعارض رأي أبي بكر الصيرفي في وصيته العسكرية الى تاشفين بن علي بن يوسف:[27]

وأَصدُمهُ أُولَ وَهلَةٍ لا تَكْتَرِث شَيْئاً فَأَظْهَارُ النُكُولِ يُضَعْضِعُ

ويبرهن هذا الاعتراض على إدراك ابن خلدون للتأريخ العسكري العربي واستلهامه لمادته الغنية في معظم النتائج التي توصل إليها خاصة وأنه يستشهد بوصية عمر بن الخطاب (ﷺ) الى عبيد الثقفي بعد أن ولاه حرب العراق: " ..... لا تَجْتَهِد مُسرعاً حتى تتبين. فأنها الحرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرفُ الفُرْصَةَ وأَلكَف ..... "[28]. وقد عرف النعمان بن مقرن المزني هذه الفرصة بعد أن مكث لها طويلاً في معركة نهاوند[29]، فكان النصر حليفه. لقد برهنت كل المعارك التي خاضها العرب المسلمون في صدر الاسلام على أن التعرض كان صفة ملازمة للجوانب السوقية بينما كان الدفاع صفة ملازمة للجانب التعبوي المباشر، أي الاشتباك.

3- الأرض

قلما نجد في القدامى من يعبر أهمية لدور الأرض في تقرير مصير أية معركة. إلا أن ابن خلدون جعلها من الأسباب الخفية السوقية لعدم اهتمام المؤرخين بها آنذاك. ونظر الى دور الأرض بمنظار حديث مع أنه لم يكن قائداً عسكرياً. إذ نَوه الى أهمية الأرض المرتفعة، تلك الأرض التي لجأ إليها المسلمون في أحد فكانت سبب الهزيمة لتخلي الرماة عنها وسبب نجاة البقية الباقية منهم بالالتجاء إليها والاحتماء بها. وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) يسأل قادته العسكريين في العراق والشام والجزيرة

أن يصفوا له الأرض، ربما من أجل تنسيق قراراته السوقية في مجمل العمليات التي كانت جارية على عدة جهات.

تلك هي الأسباب الخفية التي أعارها ابن خلدون أهمية واضحة في كسب أية معركة من المعارك لذلك نجده يقول:

" ..... وأكثر ما تَقَعُ الهزائم عن هذه الأسباب الخفية .....)[30] أما تسميتها (بالأسباب الخفية) فقد لا نلوم ابن خلدون على ذلك إذا علمنا أن الحرب لم تشكل علماً مستقلاً آنذاك. كما أن السوق بمعناه المعاصر ودلالاته الواضحة الآن لم يكن معروفاً آنذاك، مما جعل ابن خلدون يطلق على هذه الأسباب السوقية مصطلح (الأسباب الخفية). لأنها في الواقع عوامل غير مباشرة تدخل في تحقيق النصر أو الهزيمة من خارج المشهد المادي لساحة الاشتباك المباشر كما ينظر إليها الجندي البسيط حتى الوقت الحاضر. إذ لا زالت هذه الأسباب السوقية تتعامل مع الأسس التي تُجبر الخصم على الاشتباك بعد الاخلال بتوازنه وتحطيم دفاعاته النفسية والمادية بحيث يكون السوق قد قطع نصف الطريق باتجاه النصر إن لم يكن قد حقق نصراً حاسماً قبل الاشتباك المباشر بين القوتين المتحاربتين، كما حدث في معركة اولم التي خطط لها نابليون، وأجبر فيها النمساويين على الاستسلام قبل أن يفكروا في الاشتباك[31].

رابعاً: المسألة التعبوية عند ابن خلدون (نظم المعركة وتشكيلاتها).

المسألة التعبوية

يعرض ابن خلدون نظام المعركة أو ما نسميه اليوم بـ (تشكيل المعركة) في أربعة أنواع رئيسية كان بعضها سائداً في عصره وقد استلهم البعض الآخر من دراسته للتأريخ العسكري العربي. وهذه الأنواع الرئيسية من التشكيلات كما عرضها ابن خلدون هي[32]:

أ) **نظام الكر والفر:** وهو أسلوب العرب في الجاهلية حيث يكون للمقاتلين فيه مصافاً ثابتاً يلجأون إليه في الفر ليعيدوا الكر.

ب) **نظام الزحف:** وهو النظام الذي جاء به الاسلام، ويعتبره ابن خلدون أفضل من نظام الكر والفر لأنه يحفظ النظام ويزيد التماسك.

ج) **نظام الكراديس:** وهو النظام الذي يقسم به الجيش الى مجموعات منظمة بشكل مستقل. وقد ينقسم الجيش الى قلب ومقدمة وميمنة وميسرة ومؤخرة. وتكون المسافات بين أقسام الجيش أما على مدى البصر أو على مدى مسيرة يوم أو يومين. ورغم أن خالد بن الوليد أول من نقل نظام الكراديس عن البيزنطيين، إلا أن الحقيقة المهمة التي يذكرها ابن خلدون هي المسافة بين أقسام الجيش. إن هذه الحقيقة المهمة لم يعطها ابن خلدون ما تستحقه من الأهمية ولم يتناولها بعمق كاف بل اكتفى بذكرها فقط. إن المسافات بين أقسام الجيش تؤمن له حرية الحركة والمناورة السوقية. وهذه ميزة واضحة برزت خلال حركات الفتوحات العربية. إذ أن المعروف عن حركات الجيوش في تلك الأيام أن يتنقل الجيش كتلة واحدة من نقطة الى أخرى. أما أن يجعل العرب المسافات بين أقسام الجيش على مدى البصر أو مدى مسيرة يوم أو يومين، فهي مسألة إبداعية تفوق بها العرب على غيرهم. وهكذا فأن النقل العسكري عن البيزنطيين، لم يتعد التنظيم فقط، بينما بقي الابداع العسكري العربي متفوقاً من الناحية السوقية. أن عدم إدراك ابن خلدون لهذه الحقيقة قد جعله يذكرها بشكل سطحي عند تحدثه عن نظام الكراديس، ولو أدركها لجعلها من ضمن الأسباب الخفية. رغم أن هذه الميزة لم تقف عند الاستراتيجية العسكرية بل امتدت الى الاستراتيجية العليا للمدينة المنورة. فقد قسم أبو بكر جيوش المسلمين الى أحد عشر لواء لمواجهة الردة، وكانت خطة تحرير العراق تتضمن التقدم برتلين الأول من الجنوب بقيادة خالد بن الوليد والثاني من الشمال بقيادة غياض بن غنم. وكانت الحيرة هي الهدف السوقي للرتلين[33].

د) **نظام الصفوف:** وهو قتال الترك في تقسيم الجيش الى صفوف يسند بعضها بعضاً باستخدام السهام. وبما أن هذا النظام كان حديث النشأة آنذاك، وسمح للأتراك بتحقيق انتصارات عسكرية باهرة، فقد أبدى ابن خلدون إعجابه به ووصفه بالغرابة. حقاً، إن الانتصارات العسكرية تحققت دائماً بالطرق الجديدة غير المألوفة إن كانت ذات سماتٍ سوقية أو تعبوية.

خامساً: رؤية ابن خلدون لمسألة الحرب وأنواعها.

مسألة الحرب وأنواعها

يرى ابن خلدون أن الحرب حتمية، وأنها " لم تزل واقعةً في الخليقة مُنذُ بَرأها الله...."[34]. ولا يضع لها سبباً فلسفياً يُرجِعُ الحرب الى الاقتصاد أو القومية أو المذهب.... بل يرى أنها " إرادة انتقام بعض البشر من بعض "[35] ويقسم ابن خلدون الحرب منذ ذلك الوقت الى نوعين رئيسيين:

النوع الأول: حروب غير عادلة: وتشمل:

1- **حروب المنافسة:** وهي التي كانت تجري بين القبائل العربية قبل الاسلام مثل حرب البسوس وحرب الفجار، والتي يكون السبب فيها عادة الحصول على النفوذ والسلطان. ويأخذ هذا النوع في الوقت الحاضر شكل الحرب الباردة بين الشرق والغرب للسيطرة على مناطق النفوذ.

2- **حروب العدوان:** وتشمل الجانب الاقتصادي. فهي حروب تشن بلا مبرر من قبل جهة معينة للسيطرة على خيرات البلدان المجاورة مثل حروب المغول والحروب الاستعمارية. فحروب نابليون وفتوحاته الأوربية كانت حرباً تنافسية، لفرض إرادة الثورة الفرنسية على الحكومات الأوربية، وتقويض دعائم الامبراطورية البريطانية، من خلال احتلال مصر التي كان غزوها من قبل فرنسا عملاً عدوانياً لا مبرر له.

النوع الثاني: حروب عادلة: وتشمل:

1. **حروب الأمن الداخلي:** وهي الحرب التي تخوضها الدولة مجبرة ضد الخارجين على سلطاتها والمتمردين على قوانينها لغرض حفظ النظام وإدامة الأمن والوحدة. وهي حرب عادلة.
2. **الحروب الدينية (الجهاد):** يقتصر تركيز ابن خلدون على الجهاد. فهو لا يتوسع في هذا المجال. غير أنه يرى الجهاد في سبيل نشر الرسالة الاسلامية ضد الكفر والالحاد من ضمن الحروب العادلة التي تتوخى أهدافاً سامية. إن طبيعة الرسالة التي حملها العرب والتي لم تكن ذات طابع قسري حتى

ضد أشرس خصومها قد جعلت ابن خلدون يقر هذه الحقيقة التأريخية الواضحة من خلال اعتباره الجهاد حربا عادلة.

الخاتمة

إن الصفحات القليلة التي كتبها ابن خلدون في الحرب تُعتبر خطوة جريئة الى حد الاعجاب في مجال دراسة الحرب. فهو لم يقتنع بما يجري في ساحة المعركة مباشرة لتحقيق أي نصر عسكري، فتوغل في البحث بطريقة تنم عن قدرة متفوقة لم يقدر لها أن تثبت بعده إلا بفترة زمنية طويلة. وقد توصل الى اكتشاف الأسس السوقية في إدارة الحرب والتي أطلق عليها مصطلح الأسباب الخفية لكونها تقع خارج المنظر المادي لساحة المعركة كما أنها كانت آنذاك من الغموض بحيث لم تكن تمثل أكثر من ومضات العبقرية في تفكير القادة العظام. كما أن طبيعة النتائج التي توصل إليها من خلال دراسته للحرب تؤكد حقيقة اعتماده على التأريخ العسكري العربي في معظم النتائج التي توصل إليها. هذا التأريخ الغني الذي لا زال بحاجة الى الدراسة والتحليل للوصول الى الأسس السوقية الرائعة التي أثمرت اليرموك والقادسية ونهاوند.

الهوامش:

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن. التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. القاهرة: لجنة البيان العربي، 1951، ص 5–7

(2) الجابري، محمد عابد، ابن خلدون: العقل السياسي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1990، ص 15.

(3) ابن خلدون، هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي (ت: 808هـ/ 1406م)، المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: دار نهضة مصر، 2004، 1/38–45؛ علي، 1993، ج1، 38–45؛ علي، عبد الله عبد الدايم، ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع. دمشق: دار الفكر، 1993، ص 112.

(4) طه حسين، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، القاهرة: دار المعارف، 1967، ص 44.

(5) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص263.

(6) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 295؛ طه حسين، فلسفة ابن خلدون، ص 102.

(7) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 45؛ بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984، ص 221.

(8) ابن خلدون، المقدمة، ج2، ص 317؛ علي، ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ص 212.

(9) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت: دار الفكر، 1997، ج7، ص327.

(10) السَوق: هو فن استخدام القوات من أجل تأمين فرصة الضرب للتعبئة، والضرب بنجاح. ولذلك فأن السوق يتقبل نتائج كل اشتباك. وعندما يقوم السوق بتحديد الأهداف للتعبئة، فأنه يتصل بها عن طريق ما يسمى الآن بـ (فن العمليات) الذي يشارك في الاستخدام الأفضل للقوات من أجل تحقيق أهداف السياسة؛ ينظر: ليدل هارت، ب. هـ، الاستراتيجية وتأريخها في العالم (ترجمة: الهيثم الأيوبي)، دار الطليعة. بيروت، 1987، ص 30.

(11) ولد ميكافلي عام 1469 في فلورنسة من أسرة توسكانية عريقة. شب في عهد الأمير المديشي (لورنزو العظيم). أنتخب عام 1498 سكرتيراً للمستشارية الثانية الجمهورية فلورنسة. وقضى في الحكم 13 عاماً مهتماً بالشؤون الخارجية والعسكرية قبل مجيء الجيش الفرنسي الى مدينته حيث نفي عن مدينته وأخذ يجمع أفكاره حول مسائل الحكم والقضايا العسكرية في كتابه الشهير (الأمير). ينظر: ميكافلي، كتاب الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

(12) كارل فون كلاوزفيتز: ضابط بروسي في جيش فردريك الكبير وحارب نابليون بونابرت من منفاه في روسيا. ترك بعد وفاته أضخم مؤلفات عرفت حتى الآن عن الحرب. ويعرف اليوم بأنه أول من فلسف الحرب ودرسها بشكل علمي. ينظر: كارل فون كلاوزفيتز، الوجيز في الحرب، الجامعة العربية والنشر، 1988م، ص 1-3.

(13) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 277.

(14) ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص 277.

(15) كارل فون كلاوزفيتز، الوجيز في الحرب، الجامعة العربية والنشر، 1988م، ص 200.

(16) خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، بيروت: دار الفكر، 2001، ص 153.

(17) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1978، ص 143.

(18) خطة فابيوس: عين فابيوس دكتاتوراً لروما عام 217 ق. م. لمواجهة الغزو القرطاجني بقيادة هانيبال. اتبع إستراتيجية تحاشي المعركة في ظروف غير ملائمة ومطاولة القرطاجنيين وإزعاجهم بمواجهات صغيرة غير حاسمة. سميت هذه الاستراتيجية – بالاستراتيجية الفابية، حيث يمكن استخدامها لمواجهة التفوق السوقي عند الخصم. ينظر: بوليبيوس، تاريخ الحرب البونيقية الثانية، جامعة هارفارد، (ترجمة W.R. Paton)، 1922، ج3، ص250-270.

(19) الطبري، محمد بن جرير، تأريخ الرسل والملوك، القاهرة: دار المعارف،(1963) ج 4، ص 9

(20) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 398.

(21) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 559.

(22) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 26.

(23) ليدل هارت، ب. هـ، الاستراتيجية وتأريخها في العالم (ترجمة: الهيثم الأيوبي)، دار الطليعة. بيروت، 1987، ص 30.

(24) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج1، ص 277.

(25) شفيق، منير، علم الحرب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت: دار الناشر، 1992، ص 207.

(26) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 4، ص 150.

(27) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 276.

(28) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 2، ص 631.

(29) الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج 3، ص 131.

(30) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ج1، ص 277.

(31) هربرت فشر، نابليون، ترجمة: محمد نوفل ومحمد مصطفى زيادة ; تاريخ النشر: 1927م، ص 155.

(32) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ج1، ص 271.

(33) الدرة، محمود، تأريخ العرب العسكري، دار المعارف، القاهرة، 1961، ص 295.

(34) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 270.

(35) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص 271.

المصادر

1- البدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984.

2- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت: دار الكتب العلمية(1978) .

3- بوليبيوس، تاريخ الحرب البونيقية الثانية، جامعة هارفارد، (ترجمة W.R. Paton)، 1922.

4- الجابري، محمد عابد، ابن خلدون: العقل السياسي العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. 1990.

5- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، بيروت: دار الفكر، 1997.

6- خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، بيروت: دار الفكر، 2001.

7- خطاب، محمود شيت، قادة فتح العراق والجزيرة، بيروت: دار الفكر، 2001.

8- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة (الطبعة الأولى). بيروت: دار القلم، 1978.

9- الدرة، محمود، تأريخ العرب العسكري، دار المعارف، القاهرة، 1961.

10- سلامة، أمين، التأريخ الروماني، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، 1997.

11- شفيق، منير، علم الحرب، مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت: دار الناشر، 1992.

12- الطبري، محمد بن جرير، تأريخ الرسل والملوك، القاهرة: دار المعارف، 1963.

13- العقاد، عباس محمود، عبقريات (سلسلة عبقريات الإسلام)، القاهرة: دار المعارف، 1947.

14- علي، عبد الله عبد الدايم، ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع. دمشق: دار الفكر، 1993.

15- أبو الفضل، محمد، أيام العرب في الإسلام، عيسى الباب الحلبي، 1983.

16- فون كلاوزفيتز، كارل، الوجيز في الحرب (تعريب: أكرم ديري، الهيثم الأيوبي)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1988.

17- كمال، أحمد عادل، الطريق إلى المدائن، القاهرة: دار الكتاب العربي، 2008.

18- كمال، أحمد عادل، الطريق إلى دمشق، القاهرة: دار الكتاب العربي، 2008.

19- ليدل هارت، ب. هـ، الاستراتيجية وتأريخها في العالم (ترجمة: الهيثم الأيوبي)، دار الطليعة. بيروت، 1987.

20- ميكافلي، كتاب الأمير، ترجمة: أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة.

21- هربرت فشر، نابليون، ترجمة: محمد نوفل ومحمد مصطفى زيادة، تاريخ النشر: 1927م.

22- وجيز في الحرب، كارل فون كلاوزفيتز، الجامعة العربية والنشر، 1988م.